

التعليم والسياسة (*)

دكتور / محمد صلاح الدين (**)

يكره بعض الناس السياسة ويلعنون السياسة ، ويلقون عليها التبعة فيما يفسد الحياة العامة من أقدار وأوزار . فالسياسة فى اعتبارهم خبث ودهاء ، ونفاق ورياء ، وحقد وجفاء وطغيان واعتداء ، وحرب هوجاء حزبية صارحة حمقاء ، ونتائجها بالطبع شر فى شر وبلاء فى بلاء .

وهؤلاء فى نظرهم هذه الى السياسة معذورون . فهكذا أراد السياسة أن تكون السياسة فى أكثر أقطار الأرض وأغلب أدوار التاريخ .

ولكننا لو أنصفنا لخالقناهم ونظرنا الى السياسة بغير العين التى نظروا بها ، فبرأناها مما يصفون . فالسياسة فى حقيقة الأمر غير ما يظنون ، ولانذب لها اذا ضل الساسة وتكبروا سواء السبيل .

السياسة تصريف المسائل العامة ورعاية المصالح العامة ، والأصل أن نصرفها وأن نرعاها بما يرضى الله والضمير . ولو فعلنا ذلك لكانت السياسة فى مخبرها وفى مظهرها أفضل المهن وأشرفها وأعظمها شأنًا وأكثرها نفعًا وأبعدها أثرا فى سعادة الناس .

والسياسة بهذا التعريف تدخل فى كل شأن من شئون الحياة وتلعب فيه دورها الخطير . ومن هنا تنجلى لكم العلاقة الوثيقة بينها وبين التعليم . بل لعل علاقتها به أقرب وأوثق من علاقتها بأى شأن سواه .

فالتعليم غذاء العقول والنفوس والأرواح ، ضرورى كغذاء الأبدان، لازم كالهواء لحياة الانسان ، حيوى فى تأكيد الفرق بينه وبين الحيوان . وقد بلغ من أهميته أن أوصانا النبى الكريم عليه الصلاة والسلام بأن نطلبه من

(*) كلمة ألقيت فى مؤتمر جمعية المعلمين عن (سياسة التعليم فى مصر) ١٩٤٥ .

(**) كان وزير خارجية مصر فى حكومة حزب الوفد من سنة ١٩٥٠ - ١٩٥٢ .

(دراسات تربوية)

المهد الى اللحد ، وأن نطلبه ولو فى الصين - فلا عجب اذن أن تعنى السياسة أكبر العناية بشئون التعليم وأن تعتمد عليه أعظم اعتماد فيما ترمى اليه من رعاية مصالح الناس وتحسين مصائر الناس .

والتعليم من جانبه يستطيع اذا فهم رسالته على وجهها وأداها حق أدائها أن يخطو أوسع الخطوات ويقدم أجل الخدمات فى هذا السبيل .

على أن للسياسة معنى أضيق تميل اليه فى البلاد التى شاء لها القدر القاسى أن يتحكم غيرها فى أقدارها ومصائرهما ، وأبت همة أبنائها الا أن ينهضوا لاسترداد الحق المهضوم . ففى هذه البلاد تمتزج معانى السياسة وتختلط مراميها بالمبادئ الوطنية والمطالب القومية والجهاد فى سبيل الحرية والكرامة والاستقلال . والى هذه الأهداف النبيلة ينبغى أيضا أن تتجه مرامى التعليم .

ولا يتسع المقام أيها السادة للاسهاب فى علاقة التعليم بالسياسة وضرب الأمثلة عليها وتحريها عند غيرنا من الأمم لمقارنتها بما عندنا . فأكتفى بأن أشير اليها فى تاريخ مصر الحديث اشارة عابرة فيها مصداق ما أقول وفيها تذكى وعبرة ونفع للمؤمنين .

فى أيام المماليك وأيام الحملة الفرنسية قامت فى مصر نهضة وعسى قومى وشعور وطنى حمل لواءها العلماء وفى طبيعتهم نقيب الأشراف السيد عمر مكرم الذى استحق أن يلقيه بعض المؤرخين برئيس الرؤساء وزعيم الزعماء . وساهمت تلك النهضة الوطنية فى تنصيب المغفور له محمد على باشا مؤسس الأسرة المالكة الكريمة ومنشئ مصر الحديثة واليا على مصر فجلس على عرشها باسم الشعب المصرى وبتأييد ناطق من المصريين . وكان هذا الوالى الكريم من عباقره البنائين ، فلم يفته ما للتعليم من الأهمية الكبرى فى تأسيس الدولة المصرية وتوطيد أركانها فأولاه أشد العناية وأبلغ الاهتمام .

وكان التعليم القائم تعليما دينيا يحمل أكبر عبئ الأزهري الشريف ، فلم يهدمه الوالى ، ولكنه أقام الى جانبه صرح التعليم المدنى الحديث ، فأنشأ المدارس الابتدائية والتجهيزية والحربية والبحرية والخصوصية

والفنية والصناعية ، ولم ينس مدارس البنات وأوفد البعث العلمية وعنى بترجمة الكتب الأجنبية ونظم هيئة الاشراف على شئون التعليم فأنشأ شورى المدارس فديوان المدارس ، ووضع اللوائح بنظم الدراسة وبرامجها وخطط الادارة وتفصيلاتها وبالمجمله فقد خلق من العدم نهضة تعليمية حديثة واضحة المعالم مستوفية الكيان

ويجب أن نعترف بأن محمد على باشا مزج التعليم بالمجنديّة الى حد كبير ، وكان يسخره لأغراضه الحربية واعتباراته الحكومية ويرمى به الى تعزيز الجيش بالضباط والأطباء والمهندسين والأسلحة والعتاد ، وتعزيز هيئة الحكومة بالموظفين المصريين والتمكن من الاستغناء عن الموظفين الأجانب الذين اضطر الى استخدامهم . ولم يكن يعنى فى نهضته التعليمية الا قليلا بتهذيب عامة الشعب ورفع مستواهم الثقافى ، ولكنى لا أحسب ذلك عيبا كبيرا ، فقد كان ينشئ من العدم ويماشى روح العصر ، ووفق مع ذلك الى تحقيق الكثير من الاغراض القومية التى لخصها الأستاذ أحمد عزت عبد الكريم فى كتابه القيم عن التعليم فى عصر محمد على باشا على الوجه الآتى :

- ١ - توجيه البلاد وجهة التعليم الحديث .
- (٢) نشر الثقافة الغربية الى جانب الثقافة العربية .
- ٣ - بث الروح القومية .
- ٤ - توطيد زعامة مصر فى الشرق العربى .
- ٥ - النهضة باللغة العربية .
- ٦ - فتح الباب لتدعيم أركان النهضة التعليمية فيما يلى من العصور .

غير أن خلفاء محمد على لم يعنوا عنايته بالتعليم فخبث جذوته ، كما خبت جذوة غيره من النهضات حتى كان عهد اسماعيل العظيم .

واسماعيل بعد جده الكبير منشىء مصر الحديثة وصاحب الأيادى البيضاء فى يقظتها والعامل الدائب على أن تصبح مصر جزءا من أوروبا فى رقيها وتقدمها ، فعادت نهضة التعليم على يديه سيرتها فى عهد جده ، وأدخل عليها الكثير من التعديلات والتحسينات وبخاصة فى الروج والنظام والأهداف ففتحت المدارس الأهلية ونشر التعليم فى الأقاليم وأنشئت مدرسة دار العلوم

لتخريج المعلمين الصالحين وبيت المحاضرات والدروس العامة وانتشرت الجرائد السيارة وتنوعت موضوعات الكتابة فيها وعنى على وجه خاص بالموضوعات القومية والوطنية والتهديبية والاصلاحية . واهتم اسماعيل بالفنون الجميلة على اختلاف ألوانها فكان أول راع لها فى التاريخ المصرى الحديث . ومن هذا كله ترون أن اسماعيل خرج بالتعليم المدنى من دائرته الضيقة ، دائرة اعدادنا الضباط والموظفين الى دائرة أوسع وأفق أسمى ، فأصبح من مرامى التعليم تهذيب عامة الشعب ورفع مستوى الثقافة عند الأمة كلها وتكوين رأى وطنى عام يفكر فى مصائر الوطن ويحرص على مصالحه العليا .

ووافق ذلك نهضة موازية فى أفق التعليم الأزهرى على يد الزعيم الروحى الكبير السيد جمال الدين الأفغانى ، فكانت هاتان النهضتان العلميتان الروحيتان أساس كل نهضة قومية وحركة وطنية قامت بعد ذلك فى مصر ، واليهما تنتسب روح الثورة العرباوية التى أوقدتها العناصر المصرية لانصاف المصريين ، ولم يقم بها رجال الجيش وحدهم ، بل حمل عبئها معهم كثير من أهل الرأى وقادة الفكر وحملة الأقلام وفى طليعتهم محمد عبده وعبد الله نديم وسعد زغلول .

ثم منيت مصر بالاحتلال المشئوم وعنى رجاله عناية فائقة بوضع اليد على شئون التعليم وتوجيهه فى خدمة الاحتلال . وافتن مستشار المعارف المشهور المستر دنلوب فى وضع الخطط المؤدية الى تلك الغاية ، فأصبح الغرض من المدارس اعداد موظفين يفكرون بروح الاحتلال ويخدمون أغراض الاحتلال ، وضيقت دائرة التعليم وحوربت المجانية فيه بل ألغيت الغاء تاما ، وهبط نوعه ومستواه فحول الكثير من المدارس الابتدائية الى كتاتيب وصرفت العناية الى هذه الكتاتيب على حساب التعليم العالمى وفرضت اللغة الانجليزية فرضا لاعلى حساب اللغة الفرنسية وحدها ولكن على حساب اللغة العربية أيضا . وترتب على فرضها فرض المعلمين الانجليز على دور العلم وان جهلوا فى بعض الأحيان مايعلمون .

وعنى عن البيان أن الشعب المصرى لم يطق صبورا فى يوم من الأيام على الاحتلال بل كافحه منذ اليوم الأول وحاربه دون هوادة ، وتوالت آيات

هذا الكفاح وتعددت مظاهره وكلها تمت بسبب مباشر أو غير مباشر الى
التعليم .

فهذا هو الزعيم الوطنى الشاب مصطفى كامل وصاحبه النبيل الأمين
محمد فريد وأنصارهما من صفوة المثقفين ونخبة المفكرين يرفعون راية
الوطنية ويقودون الحركة الاستقلالية بما أوتوا من تفوق علمى وتحرر عقلى
ملاً نفوسهم بحب الوطن وأفعموا رؤوسهم بحق الوطن وحببا اليهم فى سبيل
الوطن احتمال أقبح الأرزاء وبذل أكرم الفداء .

وهذا هو سعد زغلول ابن الثورة العرباية أولا وأب الثورة الاستقلالية
أخيرا يشاء الله أحكم الحاكمين أن يتولى نظارة المعارف المعمومية والاحتلال
فى أشد جبروته ، فما يبالى بجبروت الاحتلال بوضع الحد لطغيان المستر
دنلوب ويفهمه فى صراحة وجلاء أن الأمر فى نظارة المعارف أمر الناظر
المصرى لا أمر المستشار الانجليزى . ثم لا يزال بشئون التعليم يبظر فيها بعين
مصرية ويداويها بروح وطنية وينفى عنها أعراض الاحتلال حتى يستقيم لها
أساس وطنى سليم . فهو يعيد المجانية وبخاصة لذوى الاستعداد من
المثقفين الذين لاتسمح لهم الحال بمواصلة التعليم ، وهو يعنى بالدراسات
العالية والبعوث العلمية ، وهو يحل اللغة العربية محل اللغة الانجليزية
فينصف لغة البلاد ويرفع كرامة البلاد وييسر العلم للطلاب ويفتح للمعلم
المصرى موصد الأبواب . .

وهذا هو قاسم أمين يعرف بسليم فطرته وثاقب فكرته وواسع ثقافته
مكانة المرأة فى المجتمع ، فيدعو دعوته الى تحريرها وتعليمها لتنهض مع
الرجل وواجبها فى تحرير الوطن ورفع شأنه بين الأوطان ، بل هذه هى
مصر الراقية كلها تضيق ذرعا بما يلقاه أبنائه من تضيق فى التعليم العالى
فتنادى عليه مفكرها ونخبة مصلحيها ، وينادون غيرهم لانشاء جامعة أهلية
ينمو فى كنفها التفكير الحر والشعور الوطنى الصميم وتتقدم البنالين لانشاء
هذه الجامعة الأميرة الكريمة فاطمة بنت اسماعيل فتجود بالحدوس والحلى
والنقود ويرأس المشروع الأمير الجليل فؤاد بن اسماعيل فيبذل أكرم الجهود
حتى تستوى الجامعة الأهلية مثابة لحرية الفكر ونور العلم ونواة لأول جامعة
حكومية تتوج الثقافة المصرية وترفع رأسها فى الآفاق .

ولقد كان حتما مقضيا أن تفضى هذه الحركات الوطنية الرائعة والنهضات العلمية المتتابعة الى الثورة القومية الجامعة التي عمت مصر فى سنة ١٩١٩ ، وقاد زمامها ناظر المعارف القديم سعد زغلول ، وكان طلاب العلم جنودها المخلصين .

ثم توتى هذه الثورة أكلها مزدوجا طيبا فتحظى مصر بالدستور يعترف لها بالاستقلال وتخلص شئون التعليم فى ظلها للحكومة المصرية تحت اشراف البرلمان .

ايها السادة :

هذا عرض مختصر لتطورات التعليم فى مصر من عهد محمد على الى اليوم . ومنه ترون أية علاقة وثيقة تربط التعليم بالسياسة وتربط السياسة بالتعليم ، حتى لتكاد تكون علاقة اندماج وامتزاج . واذا قلنا فى مصر السياسة فكانما نقول الوطنية . فالوطنية المصرية كانت توقد شعلة التعليم وكان التعليم يوقد شعلة الوطنية ، وكان الصفوة المثقفون هم قواد الحركات القومية ، وكان طلاب العلم هم طلاب الحرية والاستقلال .

الآن وقد خلصت شئون التعليم للحكومة المصرية كما أسلفنا فانكم تدركون ولاريب أية مسئولية خطيرة تقع علينا للنهوض بهذه الشئون كى تتسلح مصر فى هذا المعترك الدولى المتلاطم بالعلوم والمعارف والأخلاق الفاضلة ، فتستطيع أن تحمى سيادتها الناشئة وأن تأخذ مكانتها اللائقة بين الأمم فى خدمة الانسانية وال عمران .

واذا جاز لمثلى أن يبدي رأيه فيما صارت اليه شئون التعليم تحت الادارة الوطنية فانى لا أحسبنا جد بعينين عن سواء السبيل .

فنحن ننكر الآن أن يكون الغرض من التعليم اعداد الموظفين ، ونحرص على أن نتجه به الى تكوين المواطن الصالح والانسان الصالح القدير على خدمة الوطن والانسانية ومواجهة مشاكل الحياة ومسئولياتها بما يرفع من قدر الحياة الفردية والعائلية والاجتماعية والوطنية ويحقق السعادة للفرد وللمجتمع جهد الامكان .

ونحن نعرف أن أفضل الوسائل لادراك هذه الغاية هي صرف العناية الى شخصية الطالب وتعهدنا بالتربية الجسمية والعقلية والنفسية والروحية والخلقية والكشف عن ميولها ومواهبها لمعاونتها على الظهور والنمو وتوجيهها وجهة المصلحة والخير .

ونحن نفهم أن أحسن التربية ما كان أساسه غرس الثقة بالنفس والاعتماد عليها وتنمية روح الايثار والتضحية فى سبيل الصالح العام .
ونحن نحاول دائبين فى دوائرنا التعليمية رسمية وغير رسمية أن نأخذ بهذه الوسائل ونحقق هذه الغايات .

ونحن نتجه الى تعميم العلم وتيسيره للجميع بنات وبنين وأغنياء وفقراء على السواء ، وقد خطونا فى هذا السبيل الديمقراطى الوطنى خطوة طيبة بتعميم المجانية فى التعليم الابتدائى القائم وتوسيعها فى التعليم الثانوى والعالى والأخذ بمبدأ تكافؤ الفرص لأبناء الوطن أجمعين .

ولكن يجب أن نعلم أننا لم نقطع الا شوطا قصيرا . ومازال أمنامنا شوطا بعيدا ، وأن النتائج على وجه خاص لاتدعو الى الاسراف فى التفاؤل ، ان بالرغم من المحاولات المتتابة لتصحيح أهداف التعليم وتحسين قواعده ووسائله لايزال أكثر المتعلمين يحجون الى وظائف الحكومة ويجعلونها همهم فى الحياة . فاذا اتجه البعض الى الأعمال الحرة فكثيرا مايلاحظ عليه التقصير ونقص الاستعداد .

ثم ان الطلاب بوجه عام فى أشد الحاجة الى روح الطاعة والنظام وتوقير الرؤساء واحترام أولياء الأمور ، ويلاحظ على أكثرهم ضعف الشخصية وقصور الهمة والعجز عن احتمال التبعات ومواجهة المسؤوليات .

وهذه النتائج السيئة جدية بأن تلفت أنظارنا الى ما لايزال يعلـق بأنظمتنا التعليمية من العيوب والشوائب ، وبأن تحفزنا الى التماس مايجب لها من الطب والدواء . وتلك مهمتكم معشر القائمين بأمر التعليم . وكل مايستطيعه صديق مثلى هو أن ينصح بالاناة والتريث واستيفاء البحث والدرس قبل التغيير والتبديل ، فنظامنا التعليمى بحاجة الى الاظمتنان والاستقرار بمقدار مايجتاج الى التحسين والاصلاح .

وهنا عيوب أخرى يجب أن أشير إليها في هذا المقام ولكنها ليست من عيوب التعليم بل هي من عيوب السياسة التي يمكن أن نصلحها بالتعليم .
فقد أصبح جونا السياسى مليئاً بالأثرة والأنانية والحقده والكراهية والمهاترات والخصومات وكادت المصالح الحزبية والشخصية تغرق المصالح الوطنية فى لجتها ، وتفرقت الكلمة أيدى سببا ، ونحن أشد مانكون حاجة الى تضافر الجهود واتتلاف القلوب .

وأخشى ما أخشاه أن تنتقل هذه الآفات من الساسة المدبرين الى الساسة الناشئين ، وأن تغزو نفوس الشباب ، وهم زخر الوطن فى الملمات وعدته للنائبات وأمل الحاضر الحزين فى مستقبل سعيد أمين .

فاحذروا معشر المعلمين هذه العاقبة النكراء وجنبوا مصر من شرورها ، ففى نمتكم أخلاق الشباب ، ومن كانت أخلاق الشباب فى نتمته ففى نتمته مصير البلاد .

نشترؤهم على انكار الذات وإيثار المواطنين .

علموهم حب الوطن والتضحية فى سبيله بما يملكون .

واغرسوا فيهم روح التضافر القومى والتكافل الاخوى ليكونوا بردا وسلاما على اخوانهم فى الوطنية ونارا حامية على المغتصبين .

ولاتخشوا أن يقال أقحموا السياسة فى معاهد العلم ، فالسياسة المنكرة هى سياسة الحزبية والتفريق ، أما دعوة الاخاء والوطنية فما أجدر أن تكون عندنا كما هى عند غرينا أول الأسس فى حياة التعليم .